لحن البحيرة

ما زالت تنتاب سلمى مشاعرُ مختلطةٌ منذ أن جاءت إلى ألمانيا ، لا سيما وأنها قدِمت - أول ما قدِمت - إلى برلين، وكأن المدينة تلقي بطباعها على ساكنيها. برلين مدينة جميلة متضاربة، معطاءة حدّ الصخب، وحيوية حدّ التعب، مدينة مزدحمة بالنشاطات، ازدحام قد يثنيك عن الانخراط فيها، خاصة وإن كنت من أصحاب الشخصية الهادئة المستغرقة، كما هي سلمى.

قبل مجيئها إلى ألمانيا كانت سلمى تسكن مع عائلتها في أحد الأحياء الهادئة في ريف دمشق حيث يمر الوقت برويّة مفرطة، بيد أن سلمى كانت بحاجة إلى ما يروي أحلامها أكثر من أن تصبح معلّمة للبيانو في متوسطة الحيّ، وهذا ما دفعها لمغادرة سوريا بعد أن تم قبولها في قسم الموسيقا في جامعة برلين الحرة.

كان من حسن حظها أن تعرفت على كاميلا خلال دورة اللغة الألمانية التي كانت تحضرها في برلين، فقد دعتها تلك الفتاة الكولومبية لتكون زميلة سكن لها في شقة تقع في شارع العم توم (Onkel Tom) في حي تسهيليندورف، وبالرغم من أنهما تمتلكان طباعًا متعاكسة – فهدوء سلمى تقابله حيوية كاميلا واندفاعها - إلا أنهما كانتا تتشاركان حس المغامرة والاستكشاف.

في كل مرة تمر فيها سلمى في الشارع كانت عيناها تقعان على ذلك المتجر العتيق في زاوية الزقاق، متجر الكتب والمقتنيات القديمة، بإضاءته الخافتة وواجهته المغبرّة، وكأنه يحاول الاختباء عن الأنظار حتى باسمه " Dinge, die nicht existieren". لم تنتب سلمى الجرأة كي تدخل هذا المحل رغم أن الفضول كان يلتهمها لتعرف ما هي هذه "الأشياء التي لا توجد"، فقد كانت الأحاديث تدور بأن السيد هانز – صاحب المتجر – رجل غضوب يفضّل العزلة ولا يحب الغرباء، ولم يُرَ يومًا إلا عابسًا.

عندما علِمت كاميلا برغبة سلمى في زيارة ذلك المحل لم تُكذّب خبرًا وأصرت عليها مشجعةً أن يذهبا سوية إليه.. على باب المتجر رنّ هاتف كاميلا، نظرت إليه فتغيرت ملامحها وكأنها أدركت أمرًا مهمًا، مدّت ذراعيها دافعةً سلمى

إلى داخل المحل وهرعت هي خارجًا، حاولت سلمى اللحاق بها إلا أن صوت السيد هانز صَرفها عن محاولتها "..Bitte schön" تسمّرت سلمى في مكانها قبل أن تهرب من فيها كلمة "واااااااو" عملاقة، اتسعت معها عيناها كما اتسع فوها ولربما أكثر. صُعقت سلمى من المقتنيات المتنوعة التي تشغل كل شبر من أرجاء المحل؛ ساعة بندول قديمة، جهاز راديو ضخم، هاتف بعتلة أرقام، أسطوانات موسيقا، لوحات زيتية وأخرى مائية، ركن يضم كتبًا مهترئة، وزاوية لمعلقات جدارية.. شعرت سلمى لوهلة بالغمرة، فهي تهوى الأشياء التي تعبق بالماضي، وتذكرت لوهلة المصنف الذي كانت تجمع فيه الطوابع القديمة، فيما كان زملاؤها في الابتدائية يجمعون كروت البوكيمون. وبينما كانت تعود من رحلتها إلى الماضي أدرك السيد هانز صدق انبهارها وعمق شغفها فأصابته حماسة غريبة لم يشعر بها منذ زمن طويل. وبعد أن تبادل السيد هانز وسلمى أطراف الحديث، شَرَع يطلعها على مجموعة من المقتنيات الثمينة التي لا يعرضها على الواجهة، نفائس غالية على قلبه من أيام الحرب العالمية الثانية؛ رسائل حب ضائعة لجنود، قداحات عتيقة، مخطوطة موسيقية مجهولة المؤلف.. أما أهم نفائس السيد هانز فكانت لوحة عليها بعض الضربات الزيتية التي توحي بمشهد ما لا يمكن تمييزه، لأنها غير مكتملة، ويقول السيد هانز بأنها تعود للرسام ماكس ليبرمان، لكن غياب توقيعه وعدم اكتمال اللوحة دفع المشرفين لرفض تعليقها في متحف فيلا ليبرمان، بيد أن أمل السيد هانز لم يخب حينها، فهو يفضل أن يحتفظ بلوحته قريبًا منه.. وفيما راح السيد هانز يستفيض في الحديث عن لوحته المفضلة جذبت اهتمامَ سلمى مجموعةٌ من المفاتيح الفاخرة المزخرفة، وهنا توقف السيد هانز عن الحديث واقترب من سلمى كأبٍ يهتم لابنته. أخبرها بأن الشائعات تتحدث عن أبوابٍ تظهر في تسهيليندورف ومن ثم تختفي، وأنه يعتقد بأن هذه المفاتيح تستخدم لفتح هذه الأبواب. حذرها بنبرة دافئة من الاقتراب من هذه الأبواب فمن يعلم ماذا قد يختبئ وراءها؟!

***

بعد يوم جامعي طويل، وفي طريق عودتها إلى المنزل سارحة في خيالها، وجدت سلمى نفسها في أحد الأزقة التي لم تمشِ فيها من قبل، أخرجت هاتفها لتتأكد من موقعها على الخريطة، بيد أن خدمة تحديد الموقع (GPS) لم تكن تعمل. قررت سلمى أن تعود في الطريق المعاكس حتى ترجع إلى الشارع الذي تفرع

منه هذا الزقاق، وقبل أن تتحرك من مكانها، يتراءى لها باب سرابي تحفّه هالة مضيئة. يبدو الباب مذهّبًا وأنيقًا وكأنه خادم لبقٌ يدعوك لدخول قصر ملكي فاخر. تتصارع الريبة مع الفضول في جوف سلمى فتغلب كفّة الفضول بالضربة القاضية بأن تخطو سلمى نحو الباب بجرأة غير معهودة فتفتحه وتدخل.. وفي لمحة بصر يختفي الزقاق وتجد سلمى نفسها في بهو كبير تزين أرجاءه منحوتات إغريقية وتتعلق جدرانه لوحات بأطُرٍ مذهبة، الأرض مفروشة بسجاد عجمي فاخر والأجواء تفوح بعبير زهور ربيعية.

تصحو سلمى من انبهارها المشدوه على صوت يافع يناديها " !Klara Warum bist du zu spät.. Alle warten auf dich schon“

"أنا؟ أنا لست كلارا.. أنا سلمى!" خاطبت سلمى نفسها، ثم تابعت "تأخرت؟! ولكن عمّاذا؟"

يطلب الشاب من سلمى أن تتبعه فتفعل، لعلها تجد دليلاً عما يحصل هنا.. وفيما كانت تتبع خطاه هابطًا درجًا لولبيًا إلى الطابق السفلي راح يخبرها عن الصعوبات التي تكبدها ليتمكن من توفير مجموعة الأدوات الموسيقية المطلوبة بالخفاء، إذ أصبحت القوانين مشددة جدًّا مؤخرًا، خاصة منذ قرار سلطات الرايخ الثالث منع موسيقا الجاز واعتبارها من الفن الهابط، وصاح ساخرًا "! entartete Kunst".

وفيما كانت سلمى تتبع خطوات الشاب المستعجلة راحت آلاف الأسئلة تتزاحم في عقلها؛ أين أنا الآن؟ هل أنا في حلم؟ حلم من الماضي؟ هل كان هذا الشاب يتحدث عن الرايخ الثالث حقًا؟ في أي عصر نحن الآن؟ ومن هذا الشاب؟ ولماذا أتبعه؟ هل عليّ إخباره أني لست كلارا؟ من هي كلارا أصلًا؟ وهل أشبهها إلى هذه الدرجة؟ ...

دخل الشاب غرفة في نهاية الممر الطويل، وما إن دخلت سلمى فرأت البيانو يتصدر المشهد حتى اتسعت حدقتاها واعتلت وجهها ابتسامة عريضة، غمرتها سعادة نسيت معها كل الأسئلة التي كانت تدور في ذهنها، ولم تعلم أن "كونشيرتو" من المفاجآت لا زال بانتظارها.

أشار الشاب الوسيم، والذي كان يرتدي بدلة بلون سكري أنيق - أشار إلى شاب وشابة يجلسان قرب البيانو " Dirk am Saxophon und Lucy am Kontrabass" أشار إليها بعد ذلك "Klara am Klavier" ضحك ضحكة خفيفة مشيرًا إلى نفسه "... und Heinrich als Zuschauer".

أخرج ديرك مخطوطة موسيقية من حقيبته الجلدية فأعطى نسخة للوسي وأخرى لسلمى، فيما علق نسخته على حامل النوتات الموسيقية بجانبه. بدى لسلمى وكأنها قرأت هذه المعزوفة من قبل، لكنها لم تتذكر متى أو أين. دعى هاينريش سلمى للعزف على البيانو فلم تتردد للحظة، وما هي إلا ثوانٍ حتى صدحت أنغام موسيقا الجاز في أرجاء فيلا ليبرمان، متخللة جدرانها، متشربة في لوحاتها، ومتناثرة على أزهار حديقتها الغناء.

***

عندما استقظت سلمى في صباح اليوم التالي لم تفكر في شيء سوى البحث عن ذلك الباب مجددًا، فهي لم تستمتع بالعزف قط كما استمتعت الليلة الماضية.. هل حدث ذلك الليلة الماضية حقًا؟ أم في القرن الماضي؟ لا يهم! المهم أن تجد الباب الذهبي من جديد..

بحثت سلمى في كل الشوارع حول شقتها، بل كل شوارع تسهيليندورف وأزقتها، حتى أنها حاولت التفتيش في أرجاء غابة غرونه فالد.. وحين ظنت ألا جدوى من البحث وقررت أن تسلم أمرها لله وتعود إلى شقتها، إذا بها تجد نفسها في ذلك الزقاق، التفتت للوراء منتفضة لترى الباب في انتظارها – ليس بوسعنا أن نجبر الأقدار على الحدوث..

لم يكن الباب اليوم كحالته في المرة السابقة، فبالرغم من أنه لم يفقد جماله، إلا أنه بدا محطمًا متهالكًا، دخلت سلمى غير آبهة لتتنقل إلى البهو الكبير مجددًا، لكنه – كما الباب – كان شاحبًا وتعيسًا، المنحوتات البديعة مرمية ومهشمة، ولا أثر للوحات التي كانت تزيّن الجدران..

بحثت سلمى عن هاينريش، نزلت الدرج إلى الطابق السفلي وعبرت الممر إلى غرفة الموسيقا، كان البيانو بانتظارها، البيانو فقط! الساكسوفون كان يأنّ محطمًا مرميًا، والكونترباس مكسور مقطع الأوتار، وكل ما عدا ذلك في الغرفة

طاله الدمار. جلست سلمى إلى البيانو وشرعت تعزف لحنًا عبقًا بالأشجان لكن بالتفاؤل، لحنًا يمتزج فيه الماضي بالمستقبل، لحن موسيقا جاز على مقام الحجاز، لتضيف إليه "الحاء" الحُرقة والحبّ والحرية والحياة..

سمع هاينريش صوت العزف فدخل الغرفة مبتهجًا بموسيقا سلمى، محطمًا كما هي حال آلاتها متناثرة الأشلاء. أخبرها بأن جنود الحزب الاشتراكي الوطني اقتحموا الفيلا وصادروا – بل سرقوا – اللوحات والتحف على أنها فن منحط. ورغم أنهم اعتقلوا ديرك ولوسي بيد أن الفن لا يمكن أن يموت. طلب بعدها هاينريش من سلمى أن تنتظر هنيهة.. ثم عاد ومعه لوحة زيتية قائلًا:

- du hast mich inspiriert
- أنا ألهمتك؟ كيف هذا؟! (ردّت سلمى مستغربة)
- deine Musik (وقلب اللوحة كي تراها سلمى)

بدت اللوحة لسلمى مألوفة نوعًا ما، لكن غريبة بعض الشيء، فهي لا تشبه أيًا من اللوحات التي كانت معروضة في البهو. صوّرت اللوحة مشهدًا لبحيرة كرومه لانكه، وعلى الضفة تحت الشجرة المعمّرة مجموعة من عازفي الجاز، وبينهم سلمى منهمكة تعزف على البيانو.

يطلب هاينريش من سلمى أن تعود إلى المنزل فهذا المكان لم يعد آمنًا، وهو يخشى أن يصيبها ما أصابك ديرك ولوسي. تلمع عينا سلمى وتترقرق دمعة تكاد تنهمر، تسأله كيف يمكن لهما أن يلتقيا مجددًا، فيخبرها أن تتبع أثر الموسيقا!

***

ظل السيد هانز في اليوم التالي جالسًا على باب محله يترقب مرور سلمى ليخبرها عن الظاهرة العجيبة التي حدثت لإحدى مقتنياته الثمينة، فقد أصاب تغيّر ما تلك اللوحة غير المكتملة التي كان يحتفظ بها.. لقد باتت على غفلة لوحة كاملة! وكأنه أحدًا ما اقتحم المحل وأكمل رسمها. الغريب في الأمر أن الألوان تبدو قديمة بقِدم اللوحة وكأنها لطالما كانت جزءًا لا يتجزأ منها. تعجبت سلمى حين أخبرها السيد هانز بما حصل وهرعت معه لرؤية اللوحة، وهنا صعقت عندما اكتشفت بأنها ذات اللوحة التي أراها إياها هاينريش. راح السيد هانز ينقّل بصره بين اللوحة وسلمى رافعًا حاجبيه أعلى من جبينه، ثم صرخ بدهشة:

"Das bist du!" (وأشار إلى اللوحة). تجهمت سلمى: "ماذا؟!" وباتت تمعن النظر في اللوحة لتدرك فعلًا أن ملامح الفتاة التي في اللوحة هي ذات ملامحها، وأن هاينريش رسمها فيها بالفعل.

***

حكت سلمى للسيد هانز فيما بعد عن مغامرتها عبر ذلك الباب السحري، فتمكن من فكّ رمز التوقيع في ركن اللوحة، وأدرك أن اللوحة ليست لماكس ليبرمان بل لحفيده؛ H. L. Heinrich Liebremann تعود لـ . قرر السيد هانز أن يسمي اللوحة "لحن البحيرة" وأصرّ على الاحتفاظ بها، فلوحة كهذه أغلى من تُعرض في متحف، فهي لا تحمل قيمة فنية فحسب، بل سحرًا عابرًا للثقافات والأزمنة.

بعد بضعة أيام، اصطحبت سلمى كاميلا إلى بحيرة كرومه لانكه، كي تزور تلك البقعة التي رُسمت في اللوحة. وهناك تحت الشجرة المعمّرة حيث كانت سلمى تعزف البيانو، حلّقت ورقة في الهواء، قفزت سلمى فأمسكتها، وعندما قرّبتها لتقرأها اكتشفت بأنها تتمة المعزوفة الموسيقية التي عزفتها يومًا في الماضي، ممهورة باسمها في النهاية.. سلمى.

تمت

بقلم عُبادة الحمدان